حوار مع وليد غلمية
التراث الموسيقي العربي والحداثة

أجرى الحوار
الياس لحود

ـ هدفنا من هذا اللقاء ان نتعرف الى وليد غلمية الموسيقي ، والى ابداعك الفني منذ بداياتك ومحاولاتك الاولى .

ما هي علاقة البيئة مثلا بنتاجك ؟ وهل تؤثر بالفنان بيئة واحدة ..

● البيئة عنصر اساسي من مجموعة عناصر تكون الشخصية الفنية عموما ، وربما ، بشكل خاص ، بالنسبة للفعل الموسيقي او لفعل الشعر والرسم وغيره باعتبار ان الانسان هو بالذات اغنية عظيمة . لحن عظيم . متى وكيف يقال هذا النغم .. هذا اللحن العظيم ؟ بالنسبة للموسيقى انا ارى ان البيئة هي الجواب الاعمق تعبيرا ، اذ انها تشكل الابعاد. تشكل حنين الانسان واحاسيسه وجمالياته ، اعني الكثير من معادلاته التي هي في النهاية عطاؤه . فبقدر ما تعطي البيئة بقدر ما يصنع الانسان ، وهذا ورد عند العرب وبالتحديد في كتاب « الصناعتين » حين يقول ما معناه : اذا وجد الفنان مناخا مؤاتيا ، وفرحا مؤاتيا ، ومزاجا مؤاتيا ولونا مؤاتيا يصبغ من عقله وروحه صبوغا معينا ، فيأتي نغما جميلا .. فهو صناعة .

اذن البيئة هي المواد التي تجبلها ببعضها فينتج عن ذلك عطاء جديد . وفي دراسة تاريخ احد الفنانين تراعى البيئة : في اي طبيعة عاش وما هي المعطيات التي شكلته وجبلته ليعمل من خلال اطارها ...

ـ تحديدا ، بيئة وليد غلمية الخاصة ..

● عشت ثلاث بيئات . **الاولى** هي طفولتي ومراهقتي في مرجعيون(بلدي)، واعتقد بأنها هي التي شكلتني . على تلال شاهقة نحو الشمس حيث تنتشر احراج صنوبرية وكروم مطلقة ، تتهندس الارضُ لتعطى للانسان هناك بشكل كتلٍ من الضوء والرياح . بدات هناك وكان عمري ست سنوات ..

ـ هل تعتقد ان طبيعة الريف بخاصة تؤثر على الموسيقى ؟ الست ترى انها تولّد اصواتا وحركات معينة تستمر بنمو معين في خلفيات الفنان كينابيع للدفء والضوء والانفتاح ؟

● اجزم بهذا ـ بالنسبة لي ـ ولكنني لا

اظن بأن هذا قاعدة .

ـ الجنوب اللبناني كبيئة ، كانسان ، كحدود ... ألم يكن له عندك تاثير خاص ؟

● طبعا . الجنوب ، هذه البقعة المتألمة دائما ، النازفة ابدا ، المجروحة المقهورة المهاجرة بلا انقطاع .. اقصد ان هذه البيئة تؤثر بطابعها الريفي الحدودي على الانسان . على جميع روابطه وهمومه وافكاره . وهذا ما حصل لي فالانسان يدخل في تركيبه كل ما يمر ويحدث في حياته . والفنان هو الذي يعبر باخلاص عما يحصل له ويخزّنه من مشاهد وايقاعات والا كان عاديا كجميع الذين يعيشون ويموتون ...

ـ البيئة الثانية ..

● هي بيئة المدينة (بيروت) . الجامعة . الدروس . علاقات واحاسيس الناس المختلفة .. احاديثهم ، حواراتهم وهمومهم ، كل شيء مختلف هنا . في المدينة « لم استطع تكوين صديق » ولم استطع ان اكون صديقا كما كانت الحال في بلدتي . وانا اعتبر الصداقة بين الفنان والاشياء ضرورية فكيف بها بين الفنان والناس .

البيئة الثانية هي بيئة الضجيج المرسل وركض الارجل والنفوس الذي لا ينتهي .

ـ هناك موسيقى « الضجيج » كما نعرف . هل وصل الضجيج اليك ؟

● الضجيج لوّث احيانا بيئتي الاولى ، ولكنها تقاوم وتنجح غالبا . عندما كنت ادرس في معهد « صليبي » متمرنا على « الكمنجة » كنت اعزف وكأنني في حرج مرجعيون او على سفح جبل الشيخ . هناك في الانسان اشياء تدمغه والا كان مجرد مستهلك لا اكثر .

والبيئة الثالثة هي بيئة المجتمع الاميركي حيث درست في ما بعد . انها مختلفة عن السابقتين .

ـ يعني هذا ان البيئة الاميركية « وفّرت » لك ضجيجا اكبر ؟

● ضجيج .. لا . رايت هناك اكثر من الضجيج . الانسان يجعل من حبة تراب عملاقا : صناعة ضخمة ، وتركيب وميكانيكية عظيمان . الضجيج هناك هو ضجيج الحاجات والمتطلبات اليومية التي يتطلب الحصول عليها انفلاشا في المسافات وانفلاشا في بعد الواحد عن الآخر . المجتمع هناك لديه هموم ثانية حيث التداخل في كل شيء ..

ـ تاثير هذه البيئات على نتاجك الموسيقي ..

● بيئتي الاولى ربطتني بتراثي وشدتني الى حنين معين . وبيئة بيروت انعكست علي من خلال انسانها المندهش بالجديد . اما البيئة الثالثة فهي التي حثّتني على اكتساب العلم والمعادلات الفنية حيث اصبحت انظر الى الانسان من زاوية جديدة كبيرة ... بدات الصورة الجمالية طبيعية هادئة في بلدي ، واخذت تكبر في بيروت وتكبر اكثر في اميركا .

ـ بالنسبة لنتاجك الموسيقي .. قبل ان ندخل في اسئلتنا او حوارنا ، لا بد من تحديد ابداعك في هذه المراحل ..

● جميع الاعمال الفولكلورية ـ لا استطيع القول فولكلورية ـ كل الاعمال التي بنيتها على الفولكلور ، ما الّفت من موسيقى حتى ملحمتي الاخيرة هو مزيج من هذه البيئات الثلاث . لا يمكن فصل بيئة عن اخرى عندي باعتباري انسانا واحدا باحساس واحد وامكانية واحدة . وعندما اكتب يأتي عملي من هذا المزيج التأثري . اما كيف يقيّم الآخرون فهذا عائد لهم . لا بد من الفصل بين المعطي والمتلقي . المعطي واحد بينما المتلقي اكثر من واحد ، هو الانسان .. المجتمع .. الزمن في ما بعد . كثير مما اعطيت في مهرجانات بعلبك وغيرها كان يستلهم بيئتي الاولى ذات العلاقات

العادية غير المسؤولة . وفي ما بعد اختلفت الحالة فأخذت اضبط الالحان اكثر واكون اكثر مسؤولية لانني مع اناس يستوعبون وينتقدون ..

ـ ننتقل الآن الى سؤال كنت قد طرحته انت سابقا هو مفهومك للتراث الموسيقي العربي . نريد منك ، اولا ، تحديدا لهذا التراث وثانيا ، رأيك بالموسيقى العربية .

● قديما كان عند العرب قميص عثمان . واليوم هناك قميص التراث العربي . انمشكلة التراث العربي ليست مشكلة وخصوصا التراث الموسيقي عندنا لا في الماضي ولا في المستقبل . بعض العرب اليوم يتمنطقون بالتراث . يقول علم الجمال : عندما تستعمل اللفظ اكثر من اللزوم يفلت معناه . ولفظة التراثعندنا استعملت واستهلكت منذ سنوات حتى فقدت معناها ـ برايي ـ حيث اصبحنا نجهل اين هو وما هو . انك تسمع «بطقطوقة» فتقول انها تراث ، وتسمع بعمل كبير فتقول انه تراث . هذا لا يجوز ، فالتراث بتعبير بسيط هو سجل فقط ، وعلى الذين يشتغلون به ان يهتمّوا به اكثر لانهم يشتغلون بناحية واحدة هي الابحاث . هل يجوز الا يعمل الانسان بـ « تذكرته » الشخصية . التراث هو سجل موسيقى امة معينة وهو ضخم وغني وهائل . انه الخلاصة والكيان المطلق للانسان العربي فاذا كان نهائيا ولا شيء بعده فالافضل ان يموت هذا الانسان لانه ممنوع من التوالد الفني والتجدد واضافة روائع جديدة .

التراث هو محفّز ، ومادته الموسيقية لا يمكن ان تشكل حالة وكيانا ما لم نحولها الى حركة . مادة الخشب مثلا يمكن ان يصنع منها سرير او تمثال او باب او جسر .. الخ ... وتراثنا العربي غني بالمادة التقليدية وبما نسميه بالفولكلور ..

ـ هذا ما سبقتني اليه . كنت ساسالك عن كلمة فولكلور . ما تحديدها ؟ وهل هو موجود بالفعل عندنا ؟

● الفولكلور هو الغناء الشعبي ، هو موسيقى الشعب .. هذا تفسيره كما أرى . والى جانبه هناك التراث الموسيقي التقليدي.

ـ عندما نقول انالفولكاور هو غناء الشعب، فهل هذا يعني ان الشعب خلق الاغنية ؟

● ليس كله الذي خلق الاغنية . واحد ابدعها فطوّرها الشعب بعده على اساس نمط مزاجي معين ، او على اساس معايشته للاغنية عبر آلاف السنين فيطرب لها ويفرح بها ويحزن ، وهي هنا عمل موسيقي غنائي تلقائي وجد مع الناس ، لان الموسيقى موجودة مع الانسان منذ ولادته . الطفل / الانسان يقع ما لم يتبع « رقما » معينا . كل شيء يتبع رقمه اي ايقاعه الموزون . اما كيف نشأ الفولكلور وكيف نشأت الموسيقى ، فلهذا قصة طويلة لها افتراضاتها .

ـ هناك من يقول بان الفولكلور غير موجود.

● هذا غير صحيح . ربما قائل بأن « الدلعونا » ليست فولكلورا . كيف هذا وما هي اذن ؟ وكذلك «يا غزيل» و « ابو الزلف » . ثمة تجاوب بين الشعب وهذه الاغاني حيث يعطيها من احاسيسه وذوقه الفطري وكيانه الشيء الكثير . ونحن عندنا التقاسيمُ والموشح والمواويل ، كلها تراث تقليدي وليست فولكلورا وانما هي على علاقة به .

ـ تعني تراثا كلاسيكيا بمعنى الكلاسيكية ؟

● لا . حتى كلمة كلاسيكية هي خطأ . بين الفولكلور والتراث التقليدي traditionnel مسافة قصيرة جدا ولكنهما « منفسخان » وبعيدان بعمق . الموشح هل هو فولكلور ؟ لا .

ـ انهما يعيشان على ارض واحدة ومتشاركان .

● نعم . يعني ابن الريف لا يسمع بالموشح

الا قليلا وكذلك ابن الصحراء .

ـ هذا في القديم .

● اليوم ، صار يسمع من خلال الاجهزة . هذا بالنسبة لقميص عثمان في التراث ، هذا القميص الذي لا يجوز اخذه كمقياس ، اذ لا يجوز ان يقاس نجاح اي عمل موسيقي بناء على التراث . لكل تراث « هنكه » .. « الهنك » الموسيقي .

ـ يعني شخصيته ؟

● ليس شخصيته وحسب وانما ايضا لونه، ولا يجوز بناء او قياس او مقارنة اي عمل بالتراث . لان التراث يُلهم . تسمع احدهم يقول : « انا اعمل فولكلورا وتراثا » . الزمن وحده يعمل ذلك . نحن نأخذ .. نستلهم من التراث التقليدي ونبدع اعمالا .

ـ نعرف ان التراث كالانسان يعيش وينمو ويتطور ... وبالنسبة له هناك مادة حية واخرى جامدة . مثلا بالنسبة للتراث الادبي ، هناك مادة فيه لم نعد بحاجة اليها كما ان ثمة مادة حية كبيرة ..

● هناك فرق بين الشعر العربي والموسيقى العربية مثلا . انت هنا تتكلم عن الكلاسيكية . ليست عندنا كلاسيكية في الموسيقى العربية . والجامد فيها هو التالي: ثمة حوار بين المنظّرين لها اليوم في العالم العربي ، كأن يقال بأن هذا ليس فولكلوريا ، وذاك غير تراثي وغير عربي ، وذلك افرنجي . هذا كلام ، اذ لا يمكن ان نجعل من تاريخ الموسيقى الاوروبية تاريخا لموسيقانا .

ـ هذا معناه ان لكل شيء معطياته وظروفه وشروط تفاعله . وقد تكون فيه اجزاء يبست مع الزمن .

● طبعا . هناك الجامد غير المتطور . انني اقرأ من وقت لآخر عن الموسيقى العباسية وعن وجود الموسيقى الاموية . هذا كلام ... طالما انه لا وجود لمستندات فهذا كلام ... المهم بالنسبة للوطن العربي ان نتساءل عن الموجود لدينا . عندنا « مواد » وعلينا بمسحها وحفظها او تقديمها للناس فتكون المنطلق . كفانا الرجوع الى الوراء ما لم يكن لذلك طائل ونحن عاجزون عن معرفة ما حدث لمئتي سنة ماضية .

ـ يعني انك تشك بما يسمى « الموسيقى العباسية » ؟

● طبعا .

ـ يقال بوجود اوركسترا عباسية .

● ... ويقال بأنهم كانوا يعزفون . كانت هناك الاعواد والقوانين والدفوف . هذا كله جميل وانما هو جزء من الكل . ما يهمني هو ان اعرف ما هو العود وماذا عزف . ودعني اقول ماذا عزف وحسب فهذا هو المهم . واذا رجعنا الى الفولكلور والتراث التقليدي فهما امتداد للماضي ، وقد دخلت فيهما معطيات عديدة عبر رحلتهما في التاريخ . لنأخذهما ونعتبرهما مادتين موسيقيتين نبني عليهما اعمالنا . اننا نترك اليوم العطاء الفني والفعل الموسيقي والمستقبل لنتعلق بموسيقى العباسيين . هذا غير جائز .

ـ انت تقول بالتمييز بين الموسيقى والاغنية، وان اكثر تراثنا هو من الاغنية ، وموسيقانا هي من الموسيقى الشرقية .

● تكلمت عن المادة الموسيقية في بدء الحوار . فهناك موسيقى عربية . مادةموسيقى عربية . وهناك موسيقى شرقية وموسيقانا العربية جزء منها .

ـ هل للموسيقى العربية شخصيتها بالتالي ؟

● طبعا لها شخصيتها ..

ـ انا سمعت منك اسنوات بانك لا تعترف بوجود موسيقى عربية بل بموسيقى شرقية

عموما .

● هي جزء من الموسيقى الشرقية . ولها شخصيتها بالطبع .

ـ تعني انها وجدت في ظروف بيئية وانسانية معينة وتطورت وتغذت من الموسيقات الاخرى .

● بعكس هذا . فالموسيقى تتأثر عبر الزمن والتاريخ والعمل السياسي والاجتماعي والديني اذا شئت . . وهذه مجتمعة تؤثر بها. والموسيقى العربية هي في الاساس موسيقى بدوية وهندية وفارسية وسريانية وبيزنطية وشمال افريقية وشيء من اليونانية . هذه الموسيقات امتزجت عبر التاريخ واعطت شيئا اسمه موسيقى عربية التي هي اذن جزء من الموسيقى الشرقية ، انما ، تحديداً ، لها شروطها ومعطياتها كمادة موسيقية .

ـ أغنية القصيدة العربية ، هناك علاقة كما نعرف بين الشعر والغناء .. هل هذه الاغنية تؤثر بلحنها ام بمضمونها الشعري ؟

● يجب ان يذكر شيء مهم وهو ان المجتمع العربي هو « مستمع كلمة » وليس « مستمع نغمة ». يطرب للكلمة ويعيش الكلمة لا النغمة، وهذا حصل نتيجة ظروف مرّ فيها العربي بعد تفسّخ الدولة العباسية . دخل العربي عصر الظلمة، وفي جميع عصور الظلمة يقوى سلطان الافكار الغيبية كما كان في اوروبا . إستلمت الكنيسة الحياة والآخرة ، وفي مرحلة طويلة كان بعض المسلمين المتزمتين يستلمون الحياة والآخرة (بعكس ما يأمر الدين) . ورُتّل القرآن ترتيلا . اقول بأن السلطة السياسية كانت تحتكر الجسد بينما تحتكر الروح سلطة غيبية جعلت نفسها في خدمة السلطة الاولى. وبعد ستماية سنة من الاستعمار العثماني بكل همجيته وتأخره ، انعزل الانسان العربي ، واصبح (في وقت من الاوقات) من المحظر عليه ان يستمع للموسيقى او يتعاطى معها . فاذا فعل ذلك بطلت شهادته في المحكمة . في عهد المتوكل ، الذي كان حنبليا ، عاث المتزمتون فاحرقوا جميع المكتبات حتى مصانع الورق عدا الكتب الدينية . هذه الاسباب جعلت العربي يتقوقع في ذاته وبيته. والعربي مموسق ، تعيش الموسيقى في حسه وذاته والا كيف ينظم القصائد وهذا التراث الضخم الموقع . وانت تعرف تعدد البحور الشعرية وجوازاتها . وهنا طلب مخرجا سعى اليه فكان لا بد من الاستماع الى القصائد ذات المديح الديني . واصبح لا يستمع للموسيقى ما لم ترافق بالكلمة . فالكلمة مقدسة عندنا .

ـ هل تستطيع هنا ان تذكر بعض مميزات الاغنية العربية ؟

● استطيع الكلام فقط عن اواخر القرن التاسع عشر او عن اوائل القرن العشرين حتى اليوم . وما قبل ذلك لا املك ان اقول شيئا عنه ، واذا قلت يبقى حديثي مبنيا على الافتراض الذي هو بدوره نتيجة دراسات معينة واجتهادات خاصة ، ولكن ما من مستندات اكيدة لافتقار الجميع الى الوثائق. ولو شئت ان ادرس الاغنية العربية اليوم لوجدت فيها حرمانا وحزنا ونوى وجوى ، لوجدت فيها قيودا . كما انها تتسع لترداد يتتابع احيانا حتى القتل والالم والهجر . واهم من كل هذا انها تصف ولا تعيش . تصف الحب والهجر والاحاسيس ، وهي مسموعة في العصر الحديث بوسائل النقل المتعددة ، كما انها سمعت اولا من مصر ، ليس لان مصر هي الاقوى بل لان اول اذاعة (وسينما واسطوانة) بدات في مصر وفي مرحلة الفراغ الفني الهائل موسيقيا وغنائيا .

واليوم ، نلاحظ تقهقرا للفن المصري في الاقطار العربية لان هذا الفن بقي تقريبا كما هو دون ان يتطور. بقي على نفس النوعية موضوعا

ومعالجة موسيقية وغنائية . واذا لاحظنا ان هناك زخما وقوة ومادة تراثية ضخمة للموسيقى العربية فذلك عائد الى المشرق العربي لا الى المغرب العربي ، وهذه حقيقة اساسية ، وتستطيع ان تتلمس وتعرف كل التراث المصري بمجرد سماعك بعض اغنيات سيد درويش ، ذلك العبقري الفذ ، اما بالنسبة للتراث الموسيقي المشرقي فان في الامر صعوبة كبيرة لان هذا لا يمكن اختصاره ببعض الاغاني مثلا .

ـ انت هنا تعد مصر مع المغرب بينما يحسبها كثيرون مع المشرق .

● هذا خطأ تاريخي . قد ترى قربا بين الصعيد والمشرق في بعض المعطيات ولكن هذا لا يعني الشيء نفسه بالنسبة لكل مصر . وبمعنى آخر ، هناك جسر مربوط بالتراث العربي حيث تصل بواسطته اشياء متنوعة منها المصري واللبناني .. ولكن هذا الجسر واحد . والتراث المصري محدود كمادة متنوعة بينما التراث المشرقي متنوع ايقاعا ونغما وكلاما ، فانك لتعجب عندما تطلع على ما في الكويت والخليج والعراق (في جنوبه) من اغان تدهشك عندما تبدو وكأنها جديدة . . .

ـ نلاحظ في اواخر القرن التاسع عشر واوائل القرن العشرين وجود عدد من الموسيقيين المصريين (كتاب الاوبريت والاوبرا كما يقال) هناك الخلعي وداوود حسني وسيد درويش وزكريا احمد .. ويقال بأن احدهم له خمس وعشرون ((اوبريت)) . كما ان لسيد درويش عددا منها .

● اين هي ؟ اهي نتاجات ذهنية . محفوظات ذهنية .

ـ ليس الامر هكذا . اذا صح وجود مثل هذه الاعمال كيف تستطيع انت ـ كدارس للموسيقى ـ ان تقيّمها متسائلا عن وجودها او عن اختفائها.هذا هو السؤال الاهم .

● كيف تدون شيئا غير موجود ؟

ـ بالنسبة لسيد درويش مثلا ؟

● سيد درويش عبقري « اشتغل » في التراث ، والدور ، والقصيدة والاوبريت . انه الوحيد الذي ترك بصمات على اوراق النوته والشعر والاغنية .. وحتى على الناس ، وهذا مهم جدا . . .

ـ هل كان يتقن علم الموسيقى ؟ ام تعامل معها فطريا ؟ وكيف يستطيع في هذه الحال ان يؤلف اوبرا او اوبريتا ؟

● السبب بالنسبة لسيد درويش هو تأثيره في الشعب الذي تلقّفه وحفظ فنه ورردده فدونت مادته في اشخاص دونوها . وهذا ما خدم سيد درويش اكثر من غيره والا كان نصيبه الضياع .

ـ هناك التخوت . كانوا يقولون : تخت داوود حسني ..

● التخت يعني الاوركسترا .

ـ ألم يكن لهذه التخوت أو هذه التجمعات من تأثير على الموسيقى عن طريق المسرح الغنائي ؟

● التخت شيء والاوبرا شيء آخر . التخت هو كناية عن عود وناي وقانون وكمنجة ودف ودربكة وهو الاوركسترا المحدودة . الاوبريت شيء ثان . فباحتكاك مصر مع اوروبا دخلت تيارات حضارية منها الموسيقى بأشكالها المتنوعة ، ولكن هذا لم يؤد الى المنتظر منه . وسيد درويش هو النقطة الفاصلة بين الموسيقى العربية والغناء العربي . لقد غنى فرحا وغنى املا وغنى عملا ووجعا انسانيا وقهرا اجتماعيا، وغنى قصيدة حب وثورة ... لقد عايش المجتمع وقضايا الانسان . وفنيا كان يسمع الموسيقى عن طريق الفرق التي كانت تؤم مصر من ايطاليا واليونان وفرنسا .

ـ هل كان يحاكي الاعمال التي استمع اليها

محاكاة ؟

● لا . كان يبدع . وجائز ان يرى البعض عملا في الاوبريت لسيد درويش بدائيا ولكن هذا لا يمنع ان ترى في هذا العمل كل المقومات الابداعية المدهشة .

ـ يقال ان عبد الحليم نويرة حاول بعث هذا التراث المصري .

● هو جرّب .

ـ ألم يحاول اعادة كتابتها للاوركسترا ؟

● لم يكتب للاوركسترا . عنده جوقة ، وما قدمه كان من الموشحات والقصائد القديمة عن طريقة كورال بقالب غنائي اقل ثرثرة وقرقعة من السابق .

ـ يعني هذا انه لم يقم بعملية احياء .

● ابدا .. لم يحي التراث . لقد صاغه للكورس صياغة مهذبة وجميلة . عبد الحليم نويرة من الذين خدموا في اخراج القصائد والموشحات القديمة . لقد صاغ الموروث واخرجه في اطار جديد .

ـ لنعد الى الموضوع الاساسي . برأيك ، للاغنية العربية مسار معين ضمن تاريخ معين . وانت لا تستطيع الكلام عليه لكونه غير محدد .. أي مادته غير مدونة .

● اتكلم عنه ابتداء من القرن التاسع عشر .

ـ السمفونية هل هي من التراث ، متصلة به ومتطورة بسياقه ، ام منفصلة عنه دخيلة عليه .. وهنا يتشعب الموضوع في الحديث عن الموسيقى القومية السيمفونية (مذهب سيبليوس ، المدرسة الاسبانية) . فهل الموسيقى السمفونية العربية ترتكز على تراث عربي كلاسيكي سبق وتحدثت عنه ، ام على الفولكلور الشعبي : ما علاقة سمفونيتك « القادسية » بالموسيقى القومية عند العرب ؟

● اي عمل موسيقي ، لا يمكن ولا يجوز فصله عن المعطيات الموسيقية الاخرى . وهذا مبدأ عام بالنسبة لي . الفولكلور اوحى الغناء .. اوحى الموشح ... هو مسير عبر التاريخ ومن جملته الاوبريت والاوبرا واسماء اخرى كثيرة . ونصل الى **السمفونية** . تطور الاشياء اوصل الى السمفونية ، وتطورنا العربي لا يختلف عما في العالم ، والفن عمل متصل . اقول انه لا وجود لكلاسيكية موسيقية في موسيقانا ، وانا استعمل هذه الكلمة في ابعد معانيها واوسعها . والعمل السمفوني يقوم به انسان ، ويحتوي على الشروط الموسيقية : آلة ، عزف ، تادية ، معالجة ... يشترك فيه المستمع والناقد والمؤرخ . وهذا العمل يأتي بحكم الزمن ويقبله على الاقل جيلان ، وعند ذلك يكون عملا كلاسيكيا . اقول انه ليست هناك من كلاسيكية موسيقية في الموسيقى العربية . هناك كما قلت **تراث تقليدي وفولكلور** ولا يعنيان بهذا المعنى الكلاسيكية التي تتطلب تدوينا ومسيرة زمنية وقبول جيل بعد جيل . والمادة الموسيقية العربية موجودة ولا ينقصها الا تصنيعها وتحويلها الى حركة . وكل حركة تأتي من هذه المادة سواء اكانت موسيقى راقصة او غنائية ، او ابريتا او ملحمة او سمفونية ، فالمهم ان تكون جذورها في مادتها الاساسية . وعلى الموسيقي عندنا ان ينطلق في عطائه من ارضه ...

ـ ندخل في عملك الجديد « القادسية » .

● اشتغلت في الفولكلور واستلهمته طويلا وكنت دائما على علاقة بالمادة الموسيقية التقليدية ، عملت في الموسيقى التصويرية للافلام والمسرحيات الغنائية وكتبت ملحمة غنائية ، وها انا أنهي طبيعياً سمفونية القادسية ... وارتباطي بقوميتي وارضي وانسانها ليس غريبا . القادسية شيء طبيعي لتطوري وهي استلهام للفولكلور والموسيقى القومية .

ـ هنا ، نعود الى السؤال . ما رأيك بموسيقى سيبليوس القومية ؟

● الكلام هنا بمنطقين . بالنسبة لسيبليوس ، انك تسمع انسانا في نهاية الصفاء . او اذا اردت تفسيرا لتنظير سيبليوس وعلاقة موسيقاه بتنظيره تأخذه من موقع قومي. لا بأس . تدرس الموسيقى الفنلندية وتقارنها بصناعة سيبليوس الخلاقة فتجد الصلة الوثيقة بين نظرياته ونتاجه .

ـ نعرف الفلامنكو في الموسيقى الاسبانية.

● هو فولكلور اسباني

ـ بالنسبة لـ « رافيل » .

● لقد اوحى له بالبوليرو .

ـ والموسيقى العربية ، هل تستطيع ان توحي لنا ، بفولكلورها او بتراثها التقليدي ، باعمال لها شخصيتها ؟

● طبعا « القادسية » مثلا ، انك تتلمس في حركتها الاولى نوعا من التقاسيم . مطلعها تقسيم ولكنه تقسيم مربوط . والحركةالثانية هي كناية عن موشح ... والحركة الثالثة هي حركة اغنية « دشداشة صبغ » الفولكلورية العراقية . هذه الانغام ، هذه المادة . اخذتها وكبّرتها او صغرتها واشتغلت فيها تكنيكيا . واذا استمع اليها اجنبي يقول : انها موسيقى عربية ، وهذا هو المهم .

ـ لو اخذنا اغنية ذات جملة موسيقية واحدة ، مثلا : لما بدا يتثنى . هل تعتقد انها قابلة لاشتقاق تنويعات معينة ، سمفونية متنوعة ؟

● ولماذا لا ؟

ـ وانت اتبعت الاسلوب نفسه

● انا اتبعت الاسلوب ، ولكن الموشح من تأليفي ، وعندما تستمع اليه فانت.تستمع الى موسيقى عربية. المهم ان يكون للعمل دور، لها دور مشاركة من موقعها مع المعطيات الانسانية الاخرى ، واعني ان يجعل الفنان العربي من موسيقاه السمفونية فعل مشاركة عالميا . حين تستمع لـ « **فاغنر** » تقول هذه موسيقى المانية ، وحين تسمع « **غلينكا** » تقول : هذا روسي ... الخ . ولكن ، في النهاية ، الجميع يشاركون في الحضارة الانسانية كل من موقعه وجغرافيته وقوميته .

ـ هنا لا بد من الحديث عن التكنيك والاوركسترا . لقد كتبت اعمال سمفونية عربية قبل القادسية ، ولكنك ركزت في عملك على الاوركسترا لتعطي عملا متكاملا ، فهل يمكن ان يقوم التكنيك بديلا عن الميلوديا ؟

● اوركسترا والميلوديا والتكنيك والهارموني ... جميعها لا استغناء عنها ولا بديل في العمل المتكامل . ولا تفضيل لواحدة على الاخرى ، فالميلوديا الجيدة مع عاطل تؤدي الى عامل ضعيف والعكس كذلك اذ يصبح العمل بدون معنى . والهارموني المضعضع المفكك لا يعطي اي معنى . هناك ربط بين جميع العناصر . واذا حكم الزمن على « القادسية » انها عمل كلاسيكي فهو بالتالي قد حكم على القالب ، والتوزيع ، والميلوديا ، والتركيب ، والموضوع والمعالجة... والعمل الكلاسيكي هو عمل جيد يحكم عليه الزمن بالبقاء .

ـ لنعد الى الخصوصيات . الميلوديا عندك. قلنا في البداية انها تنشا او تنبع في بيئة الفنان الاولى .

● في وجدانياته .

ـ انت ، عندك ميلوديا في توزعات معينة .

● شرقية عربية .

ـ ينابيع الميلوديا لديك ؟

● الميلوديا ـ باختصار ـ هي المادة الموسيقية التي استعملها . انني آخذ نغمات .. جملا صغيرة احيانا . هذه هي المادة . كل هذا من طفولتي وتراثي وبيئتي .. من قوميتي وجغرافيتي ، من فلاح وراع او من **جماعة** تغني بشكل تلقائي وفوري ، واحيانا من مقاتل ... انني آخذ عن اناس إحياء بسطاء ...

فهذه المادة قريبة اذن من البيئة والمجتمع ، وانا اخضعها للجدل والاخذ والعطاء العلميين : هنا يتدخل العلم .

ـ لو بقيت في بيئتك الاولى ، هل كان باستطاعتك ان تعطي « القادسية » ؟

● لو لم اتعلم لما اعطيتها .

ـ لنتكلم عن التكنيك الاوركسترالي .

● انه عمل العلم .

ـ والعلم هنا ليس مقاييس ومعادلات جامدة .

● لا . هو علم الآلة ، مقوماتها .. قوتها .. مدى تصويرها . بمعنى آخر ان نكرس الاوركسترا لخدمة موسيقانا وليس العكس .

ـ انت تعني الغربيين . هل الموسيقى الغربية في ازمة ، وهل تشكل الميلوديا احد الاسباب المهمة لهذه الازمة ؟ بعد الانسان الغربي عن العاطفة والارض وقربه من الآلة هل خلقا بالنسبة لانسان المجتمع الصناعي الحديث تحولا ما عن روح الفن الانسانية ..

● هذا تفسير قراته . ولدي تفسير آخر . اذا كان هناك من تقهقر في الفن الاوروبي فهو بسبب الحربين العالميتين وليس بسبب الآلة. لقد تركت الحربان نوعا من البتر والقطع بين ما قبلهما وما بعدهما من تسلسل بشري في الافكار والعواطف.. ان كثرة الاموات والتشرد والفقر والدمار قد انعكست على النفوس والافكار والعواطف . لقد تربى الطفل الاوروبي الجديد بين ركام العالم المتهدم منقطعا فنيا عن تيار ما قبل الحرب ، ودخل عصرا لم يكن مهيأ له . وهناك في العالم الغربي ـ واوروبا على الاخص ـ ردة معاكسة لما يحدث الآن فنيا ، وهي ردة من اجل تكملة ووصل الخط المقطوع . هذا ليس تخلفا وانما هو ضياع وتشتت ، وهو شيء طبيعي بعد الحروب والثورات .

ـ وما تفسيرك اذن للموسيقى الالكترونية ؟

● سميت الالكترونية ، وهي ليست موسيقى في الاساس وانا سميتها «مؤثرات» صوتية ...

ـ تفتقر لاشياء لكي تكون موسيقى لها دورها .

● هي « مؤثرات » في الدرجة الاولى لكنها توجد ابعادا جديدة للسلم الموسيقي .

ـ ما هو السبب برأيك ؟

● انه التطور التقني من ناحية ، والاستهلاك من ناحية ثانية . فالمجتمعات التي تعيش حروبا وثورات ، وبالتالي حروبا بدون ثورات ، تصل الى الوقت الذي يبدأ فيه ظهور وترسيخ الفنون الاستهلاكية ، لانها تعيش في ظروف غير طبيعية دون راحة وتسلسل. وبعد الحروب تضعضع فني وفكري وثقافي الى ان تركز الشعوب اقدامها في الارضية الصلبة لتعود الى البناء من جديد .

ـ بعدما يحدث عندنا ، تكون المادةالموسيقية بحاجة الى من يعيد استلهامها وبناءها .

● بالتأكيد .

ـ وهنا ، وبعد دخول التكنيك العلمي هل تستطيع ان تشكل الموسيقى العربية رافدا مهما لما افتقدته الموسيقى الاوروبية اليوم وبعد الحرب ، لتلعب دورها عالميا ؟

● بالتأكيد . مادتنا الموسيقية غنية جدا وزاخرة بالحياة ولعبت وستلعب دورا . « **فردي** » استلهم منها الكثير وكذلك « **كورساكوف** » وعدد من الموسيقيين الحاليين .

ـ في هذه الحالة ، هل تعتقد ان بعض المدارس او بعض الاعمال القائمة على اساس تكنيك موسيقي يمكن ان تبعث في التراث روحا جديدة ؟

● يا صديقي ، علينا ان نعتبر الفن الموسيقى خاصة ، شيئا ساميا رفيعا ورديفا

للتطور ، ونعترف بأنه ضرورة وهو جزء مهم من ثقافة الانسان . وبعد اعادة الاعتبار هذه نبدأ بالتثقيف الموسيقي من الحضانة ، وبعد خمس عشرة سنة سترى ان جيلا فنيا مهما قد وجد بالفعل . فالثقافة معايشة يومية من موقع ذوق مسؤول منفتح فكريا . وبهذا نجعل من انساننا كائن وعى متيقظا يمارس فعل الفن . وعندما يصبح عارفا يصبح بالتالي قريبا من تراثه بمواده الاساسية .

ـ العالم العربي الذي يحاول جاهدا ان يكون ناميا مبتعدا عن التخلف لو استطاع ان يوظف امكاناته المادية والفنية التراثية لتخطي الكثير من معيقاته .

● عندما يتعلم المواطن العربي تنتهي مشكلته . انه يعيش هجوما تقنيا دون ان يعرف كيف يحرك التقنية . التقنية استيراد ، والعلم مع التقنية هو الحل .

ـ بعد هذا الحوار ـ الدراسة ، لنتكلم اخيرا عن عملك السمفوني الاخير ((القادسية)) . نحن نعرف ان القادسية تاريخيا هي اليوم الرابع من اربعة ايام الحرب .

● هي ارماث واغواث وعماس والقادسية .

ـ أخذتها جميعها ؟

● الاربعة ايام . . استوحيتها جميعها .

ـ اربع حركات على اساس الاربعة ايام . هذا العمل كيف أتى في ظروف التراث العربي ؟

● القادسية حدث تاريخي ذو مسار مختلف . هو حدث قطع تاريخي تم به انتصار عربي على قوى كبرى . انه انتصار عسكري وعقائدي وثقافي حضاري: كانت هناك حضارة ساسانية بمعتقدات وتقاليد مجوسية فيها ما فيها من السحر والخزعبلات ، ولها قوة عظمى هي قوة الجيش الفارسي . وجرت المعركة بين ثلاثة وثلاثين الف عربي ومئة وعشرين الف فارسي . تم الانتصار بعد اربعة ايام ، وسجلت مأثرة عسكرية . ماتت ديانة مجوسية وثنية وحضارة وانتشرت ديانة اسلامية الهية وحضارة. انتهت مفاهيم وبدات مفاهيم . قضي على الغطرسة والسيطرة والقتل والاحتلال واعلنت رسالة تسامح مع ما تحمله للنفس الانسانية من ابعاد وللحلم الانساني من آفاق . . . هذا في الواقع موضوع ملحمة . موضوع سمفونية بحد ذاته . ومن الاهمية بمكان ان نأخذ من تاريخنا العظيم ما نستطيع توظيفه بامكاناتنا وطاقاتنا وقدراتنا الحالية على طريق البناء المستقبلي . والقادسية حدث ماضوي تاريخي صيغ ضمن ظروف الحاضر وشروطه .

ـ العرب اليوم يقاومون قوة غطرسة كبرى استعمرت بلادهم وجزءا من افكارهم ، واقتطعت قسما من ارضهم قريبا جدا من القلب (فلسطين) ، وتحاول ان تثبت تفوقها التكنولوجي . . المعادلة ذاتها في تاريخ القادسية . . . هل نستطيع القول بأن عملك يستبطن هذه الظروف التاريخية المصيرية ؟

● ربما .

ـ وهل ثمة امل في الانتصار تصرح به فنيا او تلمح بعدما انهزم عدد كبير في هذا الوقت ؟

● انني اسمع هذا الكلام الحزين . شتان بين انسان القادسية العربية والانسان الصهيوني . بعضنا متخلف فكريا وثقافيا لانه مقصر عن معرفة قوة الحق ، يعمل وكأن وجوده مؤقت . الانسان العربي لا يعمل احيانا وكأنه باق وهذه هي المشكلة . انه غير مؤمن بالاجيال الآتية . تاريخنا عظيم وانسان تاريخنا هو عظيم ايضا (هذا ما سعيت للتعبير عنه) ولكننا خنا في احيان امانة هذا التاريخ وهذا الانسان . . قهرناه وسحلناه وذبحناه ودفناه في مخافر الشرطة واصبحنا نفتش عن ارض عندنا نقف عليها .

ثمة من يقف على اطلال الحضارة العربية مكتوفا او على اطلال الحضارة الاوروبية معجبا . انه لشيء محزن . واذا كانت قادسيتي تتجاوب مع تحريض الانسان العربي لتحريكه فأكون قد وفيت القصد بطريقة غير مباشرة . انا اغني الامل في القادسية .. انشد للاجيال الآتية . « **شوبان** » حرّض البولونيين بموسيقاه وكذلك فعل « **بتهوفن** » مع الشعب الالماني ، والفنون العالمية حرضت الكثير من الشعوب المغلوبة وايقظتها .. فاذا كانت القادسية ــ وعندي شك عظيم في هذا ــ قد وصلت الى هذا الفعل اكون قد وصلت الى ما ابتغي بيني وبين نفسي . انني اطمح لدور كهذا .

ــ هناك وسائل للايصال الى الجمهور ، والموسيقى هي فعل جمهور اكثر مما هي فعل نخبة ...

● ستؤثر القادسية على طبقة معينة فنيا وفكريا ، اقول هذا بتواضع وصراحة ، وهذه الطبقة قليلة بعددها . ولكن ، سيكون للقادسية دور .

ــ اذن ستكون فاعليتها محدودة ..

● سيكون لها دور عام . ان اول « قفة » من التراب يبدأ بها اول فعل البناء .

ــ انني أسأل الآن لا كناقد بل كمستمع وارجو ان توضح لي بعض ما رأينه في عملك : احيانا تصف المعارك والمواقف الدرامية للاشخاص واحيانا يلاحظ عندك التشبيه أو نقل ما يشبهه كما هي الحال في موسيقى الافلام السينمائية : موسيقى ترافق مواقف واحداثا او مشاهد معينة .. فهل اتبعت فيها وسائل عدا الوصف ؟

● في القادسية كما ذكرت ناحية وصفية، ولكن فيها ايضا مقاطع شعرية وعاطفية ، فيها صلاة فيها الوان العظمة والفخفخة بين الصعود والهبوط في المشاهد . كل هذا بالرموز الموسيقية . بمعنى آخر ، عندما كتبتها كنت ادرك انني اواجه انسانا عربيا بعيدا عن العمل السمفوني وما يعنيه ويتطلبه ، وقدمت له عملا من المادة التي يتحسسها . ومن ناحية ثانية تركت له حرية التصور والتمثيل كمستمع ومتلق وهو المثقف الواعي ... فالقادسية ليست وصفية وحسب وانما هي تنقل حالات واحداثا وانا اتقصى الحالة والحدث والتقطهما . كما انها ــ ككل عمل سمفوني ــ لا تقدر على الذهاب بعيدا في التفاصيل ، بمعنى انني لم يكن في استطاعتي مثلا ان ابرز فيها عاصفة رملية او سيوفا لماعة او غابات نخيل واحصنة وفرسانا مقاتلين .. هذه التفاصيل غير موجودة . انما باستطاعة الموسيقى ان تبعث فيك حالة ما ، والحدث الذي يحصل هو جزء من المتلقي الذي هو بذاته جزء من العمل الفني الموسيقي ــ برايي ــ وان كان الحدث التاريخي يشكل جزءا كبيرا آخر من هذا العمل المصنوع بابداع .

ــ اذن ، خلفية القادسية هي التاريخ العربي الملحمي هذا اولا ، وارضيتها ثانيا هي لبنان الحرب والانسان والثورة حيث تمتد حدود جنوبية ملتهبة نحو فلسطين ، تاركة وراءها جبالا من الرجال المتلمسين طريقهم الى قمم المجد ..

● نعم . فأنا ابن لبنان الاحداث والرعب والخوف والمصير العربي .. كما انني استلهم انتصارات القادسية التي اخترتها تلقائيا . وعملي هذا هو بداية لاعمال اخرى ، فقد انهيت دراسة المتنبي . وساكتب عنه عملا سمفونيا آخر . كتبت في اوائل السبعينات عملا موسيقيا عن الجنوب اللبناني ... وكما قلت لك نحن لم ننس تاريخنا فقط بل نحرناه ودفناه .. وعلينا ان نفكر ونعمل لبعثه حيا معاصرا .